في بينالي «ألبياك» في إسبانيا

غورنيكا عراقية: سماء مرصعة بالطائرات ومدن ذاهبة الى غيابها!

علي رشيد*

حدث (أسود وأبيض)

■ افتتح هذا العام وللفترة من 10 ـ 7 ـ 2006 ولغاية 15 ـ 9 ـ 2006 بينالي ألبياك الاسباني وسط قرية رودالكيلار الساحرة والتي اختيرت كمكان لفعالية هذا الحدث الفني، ومن خلال مشاركتي، تم ترشيحي من قبل السيد مدير البينالي لتنفيذ عمل يدعى (أكشن) بالأسود والأبيض وبمساحة كبيرة وفي الفضاء الخارجي أي خارج قاعات العرض، تاركا لي حرية الاختيار في تنفيذ العمل أو المواد المستخدمة.

ترددت في البدء من فكرة تنفيذ هذا العمل، خصوصا وأن اليوم المحدد له سيكون يوم 8 ـ 8 أي بعد مايقارب الشهر من موعد بدء البينالي، ثم ماذا سيضيف هذا العمل لفاعلية اليوم الاول حيث الافتتاح الكبير والحضور الفاعل والاهتمام الاعلامي، خصوصا وأن أي عمل سينفذ بعد مرور شهر على افتتاح هذا المعرض سيكون مرهونا بسكون المكان وتمثله لما احتوته قاعاته وساحاته من أعمال فنية لفنانين معروفين، فنانين متميزين بتأصيل واقع حداثي، وبتجارب فاعلة في تكثيف اللغة البصرية وتعميم مفاهيم جديدة للفن بعيدا عن اغواء الطرح المباشر والكسول لمفهوم فن المتعة.

كانت أغلب الأعمال المشاركة في البينالي هي تمثيل لفن اللحظة بكل عنفها ودلالتها وبساطة خامتها، بل كانت الخامة السائدة في أغلب الأعمال هي الخامة المبذولة من مخلفات الاستخدام الحياتي، أوراق وعلب كارتون وصفائح وحجارة كونت أشكالا هندسية وبناءات هرمية تنجز حياتها الغامضة، أكياس شاي مستخدمة (ليبتون) خلقت كائنها الهش واقتنصت عزلته، آثار عجلات سيارة على الاسفلت وهي تخلف كائنات مدهوسة، كانت هناك أعمال تركيبية وأنستليشن وشاشات عرض كبيرة، وحركة متداخلة وأصوات وظلال لأشخاص وأماكن مرشحة من اضاءات مكثفة.

لقد نسجت الأعمال الفنية منطوقها البصري وسردها الدلالي من خلال البوح بأن أي عمل فني هو مكيدة تتشكل عبر تجريدها للواقع وتحريفها للأشكال وتأويلها للفكرة وتحريرها للمخيلة واباحتها للمطلق. لذلك اعتمد النص البصري على سحر وطاقة الشفرة التي تستدرج الآخر الى مرموزاتها. لم تكن مهمة الأعمال طرح الأسئلة أو اختصار الوجود بأجوبة عقيمة، بينما كانت قراءة مغايرة تبوح بمشاكستها للمتناقضات الحياتية التي افرزتها التحولات الاجتماعية والفكرية لعولمة تمد لسانها للكائن المندغم في غياب المجاهيل، هذا الكائن اللاهث خلف صخرته التي انهكت سيزيفها.

تجسدت خبرة المشاركين في القدرة على تسخير الفضاء لينضم الى عناصر العمل ومقارباته التي تبث وتستعصي، تشير وتوهم، تغري وتجافي، مقاربات تقف على الضد مما تجسده الصورة العاكسة التي تختصر أبصارنا وتلقنها الرؤية. لهذا كانت الأعمال تخلخل مكامن الخيبة في عالمنا الشرس وحضارته الصادمة و تسخر من منطوقه الغرائبي، كانت تحلق بعيدا عن اسطبل الفن الناسخ و المزخرف وألوانه الضاجة الناشزة . كانت الأعمال أحجية تساجل دون فهارس أو غواية لمعنى مباح أو لفكرة، لهذا اشارت لفن يرتب أبجدية لا تشرح بل تقود الى بئر من يقين يناقض الرؤية وثباتها، يقين يحتم على الفن أن يذهب بالمقدس (المتهالك) الى الجحيم، وبالمركز (المتعالي) الى هامشه، وبالاشارة (المرسومة) الى اللامكان.

كانت الأعمال تفتعل خصومتها مع المكان، وسعة وبراءة الطبيعة التي تحتويه، حيث سلسلة من جبال تحرس بهجته وتبرز ملامحه. كان المكان توحد لأندلس بحشد من نخيل وحرارة شمس تفرط في وهجها لتوقظ حماسة الزمن وربما لتستعيد تاريخه المنكفئ.

هنا وهناك

بين بوح الأعمال وسحر المكان، كنت منقادا لتوحدي مع غياب كرس صيفي القائظ بالهزائم هذا العام، بدأ بالفجيعة التي أثقلت كاهلي بكل مساحة السواد التي رسمت المشهد هناك، حيث لا مناص من أن يربك كيانك (المشهد) كلما تناهشته غيوم تتكاثف كمتاهات فوق سماواته، غيوم ترسم حدثها (ها) في جسد ه المحاصر بأحبار الأمم التي أفضت لشرط بقائه الهش.

كانت الحرب تعصف بمكاني الآخر هناك، حيث بغداد منقادة لموتها اليومي و المبرمج وبوتيرة باذخة. موت مفخخ يناصبها العداء، فيبعثر صباحها الضاج بالانفجارات وينثر أجساد أبنائها الفقراء المتطلعين لضفة أخرى قد تتسع لأحلامهم، وكانت بيروت تنجز رثاء مكررا لضحاياها، بينما كنت أتلمس اختلال المشهد بين المكان الذي احتويه والمكان الذي يحتويني، بين سحر المشهد هنا وسعة البحر وسلسلة الجبال وضحكات الناس ومرحهم وسعادتهم، وبين عتامة الصورة هناك وهمجية الخراب ومشاعة الموت.

الفنان علي رشيد اثناء العمل على لوحته (القدس العربي)

كان عليّ يوم 8 ـ 8 تنفيذ العمل الذي رشحني لتنفيذه مدير البينالي وعند حضوري الى المكان اكتشفت أن الفكرة أكثر سعة من تنفيذ عمل، كان المكان يعج بالناس ممن حضروا لتدوين فاعلية اليوم وحماسة الحدث (الأكشن)، كانت الصحافة حاضرة والتلفزيون، مصورون وفنانون ومسؤولون وطلبة أكاديمة الفنون. انه يوم مفرط بالمراسيم، حتى احسست بثقل وحجم المهمة، بل وبالتحدي المشوب بالقلق، خصوصا وانني والى لحظة وصولي الى المكان للبدء بالعمل لم يكن في الذهن أي تصور أو مخطط وطريقة للتنفيذ.

ثم لم يكن بامكان أي مساحة أن تختزل كم الألم الذي ينهش يومي، لأن متابعتي لأخبار الحرب وحتى ساعات متأخرة من الليل لم تترك لي مجالا للتفكير في رسم صورة مغايرة لما ترسمها الشاشة في مخيلتي وهي تستعرض بخيانة مهذبة معاناة الناس هناك من على فضائيات عدة تبث موتا مبرمجا وتنقله لمشاهديها الأعزاء بالصوت والصورة، كانت تتبارى لتنقل للمشاهد فظاعة المشهد ودمويته (الضاحية الجنوبية لبيروت أو أحياء الفقراء في بغداد) لا لتنقل الحقيقة أو لتدين الفعل، بل لتنجز السبق وتكرس الحدث.

كان عدد من طلبة الأكاديمية يتهيأون لتعليق خمس قطع من القماش (الكنفاس) ستكون مجتمعة بطول 12 مترا تقريبا وعرض مترين على جدار أخرس ودون ملامح، لكنني كنت مشغولا عنهم في البحث عن المكان الذي يمكنني التشبث بخرائطه التي ستفتح لي حدود الشكل الذي سيجاري النص الذي سينجزه السواد، لم يكن عليّ أن ألبي شروط المكان، بل كنت أبحث عن مكان يلبي شروط المراثي الذي استحضرتها وأنا اتلمس سطح البياض النهم للقماشة التي ستتشرب مراسيم الغواية وبيانها. كان هناك جدار متهدم لبناية قديمة وأمامه مساحة من الأرض الحجرية المتربة، حينها تناص المشهد المتخيل هنا مع المشهد الذي تنجزه الحرب هناك.

هل سيكرس السواد هنا الصراخ والرعب والموت هناك؟ وهل ستنقل صداه (الاكريلكي) الجبال التي تحيط بالمشهد (الضاج بالحياة) هنا؟

فرشت القماش فوق الأرض المتربة وأحجارها، ثم بدأت العمل من حيث لا حدود تتسع لمكنونه ،من نقطة لم أعينها رسمت حدود البلاد وأوزارها، رسمت حروب الله وقياماته، رسمت رماد الحضارة وتعاليمها المبتلة بالرصاص**، رسمت السماوات وهي موشحة بالطائرات، رسمت المدن مسحوبة لغيابها الفج، رسمت بغداد وبيروت وغزة وكربلاء، رسمت الأمهات وهن ملتفعات بسواد الوقار والموت، رسمت الطفولة نثارا يهزأ من حكمة الخلق، رسمت الصراخ الذي يختلج في نفسي على كل هذه الفقدانات... الوطن، الأهل، والأخوة الضحايا، وفقداني الأكثر وجعا ....

هل حقا دونت كل هذا، وبالأسود وحده ؟

جورنيكات

لم يكن لي ملاذ سوى أن أتعاطى مع الموت هناك أو هنا فوق القماشة، كنت أرسم وأدون وأفصح وأواري، كنت أقرأ العزلة التي يؤثثها الموت بتاريخنا، كنت منغمسا في استعادة حشد الجورنيكات وقداسها الذي لم ينته بعد، وأنا استرجع تاريخ المصطلح الذي فهرس خطيئة أن تسكب الأسود وتسترسل في سحبه نحو حافة البياض ليصرخ أحدهم جورنيكا مغايرة.

كتبت الصحافية الاسبانية أندريا مارتينس ويستلي في صحيفة صوت الميريه بتاريخ 9 آب (أغسطس) 2006 ان العمل الذي نفذه الفنان علي رشيد في بينالي ألبياك هو جورنيكا عراقية، قبلها وفي عام 2003 عرضت جدارية لي أسميتها (الغياب) وبطول عشرة أمتار على قاعة الأكاديمية الحرة في دنهاخ، وكان العمل صرخة أطلقتها ضد تدمير البلاد من قبل المحتل وبجحة الطاغية والذي لم يكن ليساوي هو ونظامه وأزلامه قطرة دم تهرق من جسد طفل، كان العمل نبوءة بحجم الكارثة التي سيشيعها الاحتلال والتي ستكمل دورة الرعب والكوارث والجرائم التي أشاعها الطاغية، كتب حينها صحافي هولندي وفي مجلة (بولخري ستوديو) ان الفنان رسم جورنيكاه كإدانة للدمار الذي عصف ببلاده، كان الدمار والخراب الذي أفرزته الحرب ،والموت المفرط والحرائق التي سكبتها سماواتها على المدن العراقية كافية كي تخدش الفرح (سقوط الطاغية) الذي طالما انتظرناه، بل وتواريه.

عام 1977، وحين عرضت مجموعة من التخطيطات التي نفذت زمن الحرب الأولى من حروب الدكتاتور المشبوهة الأعداد والمسميات، كتب في دليل المعرض أنها جورنيكا مغايرة، وأنها بانوراما للبشاعة التي ترتكب هناك.

يا الهي بيكاسو بعظمته لم يرسم سوى جورنيكا واحدة، وهاهم أحفادها أناس يمتثلون لشرط الحياة بزهوها وسعادتها والفتها وسلامها وأمانها ،فالأطفال يلعبون بمأمن من الرصاص أو الشظايا، والنساء يمارسن الغنج ويحتفلن بطقس أنوثتهن بعيدا عن الاختطاف، والرجال يتقافزون بفرح الصبية وهم يركضون ببهجة نحو البحر دون خوف من سكين ملثم يحز رقابهم، بينما نحن نؤرشف لجورنيكات متلاحقة، جورنيكا للطغاة ودمويتهم، جورنيكا للاحتلال ودماره، جورنيكا للارهاب وجرائمه، وهمجيته البهيمية والعدوانية، جورنيكا شاسعة الخراب أحزانها تحرق احلامنا وتدك مصائبها أجسادنا المباحة للنثر من بغداد الى بيروت.

كم جورنيكا مقبلة علينا انتظارفجيعتها النهمة، ثم علينا ان نحملها معنا لمشاركات قادمة ؟

دع الرفات تستريح

كانت ظهيرة ذلك النهار ساخنة، وبعد حوالي ساعتين ونصف، كان الحدث (الأكشن) بالأسود والأبيض يبدو كأثر يرقد فيه عالم من الصراخ والوجع والأجساد، والذكريات، والاسماء، والدمى، والكلمات، كان البياض قد استنفذ شرط العمل وهو يتشرب السواد المتناص مع سواد آخر أكثر عتمة وفجيعة. احتفل الجميع بنهاية هذه المشاكسة التي أوجعت المكان وثلمت سكينته وألفته، وعند دعوة الغذاء التي أقامتها ادارة البينالي رفع الجميع أنخابهم، اقترب مني السيد مدير البينالي ليؤكد شكره لي وليبدي سعادته ورضاه عن هذا اليوم، وعن النجاح الذي تحقق، لكنه باغتني بالسؤال عن تصوري للطريقة المثلى التي سيعلق فيها العمل الذي أنجزته، وعن الكيفية التي يمكنني فيها استرجاعه أو اعطاء البينالي حق الاحتفاظ بالعمل، لكنني فاجأته بطلبي، بأن يترك العمل بمكانه، وأن لا يرفعه أو يحركه، لندعه يتوغل في سكون المكان، وبعد صمت همست له لندع الرفات تستريح.

عند الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم كنت آخر من غادر المكان بعد أن تبادلت مع الجميع كلمات المجاملة والتحايا والعناوين، وحينما بدأت السيارة تتهادى في سكينة آخر النهار، وهي تسير بحركة لولبية في الطريق الصاعد بين الجبال، تاركا قرية روداليكلار (البينالية) خلفي، كنت أنظر الى هذا الجمال الخارق حولي، والى وداعة القرية التي كانت تبدو أكثردلالة وهي تفترش هذا السكون البهيج، لم أكن قد ابتعدت كثيرا حين أوقفت محرك السيارة، ونزلت لألقي نظرة أخيرة من هذا العلو على المكان الذي أودعته السيرة التي ستصدع بلاغة الحدث، حينها وقع بصري على القماش المسجى كأثر نهم يبوح بملامح من رسمتهم الصورة المخاتلة على شاشات الفضائيات حيث هدير المكائن وعربدات القاذفات تنهش أجساد الضحايا بحثا عن نصر غامض وبيان أملس يحرر القاتل من دم ضحيته، بيما كانت الأجساد المرسومة هنا تتناص مع وداعة المكان ورضاه.

حينها رددت شبهة الكلام... دع الرفات تستريح.

---

* فنان تشكيلي من العراق

** مبتلة بالرصاص ـ من نص شعري للشاعر الراحل الصديق صاحب الشاهر

تداعيات

كاتب مغترب
ترك «الشقا على من بقى»

منهل السراج*

■ استحلى أصدقائي من الكتاب الذين يعيشون في سورية أن يطلقوا عليّ كلمتي «كاتب مغترب» من أول شهر صرت فيه خارج سورية. والآن وأنا لم يمض بعد على مغادرتي عشرة شهور، صرت أحس في لهجتهم معي بعض الامتعاض، هذا اذا لم يصل حد الهجومية. كأنني تركت الشقا على من بقى، مع أن الشقاء لم يزل، بل صارت له أشكال أخرى في القلب والوجدان. ربما فرغت من العدائية التي يشحننا بها الواقع في سورية ويجعلنا مغتربين عن واقعنا، لكن في الوقت نفسه امتلأت بهموم أخرى.

كان قربي من مكمن الشر، يوترني ويفقدني القدرة الحرة على التعبير. أما حين ابتعدت عن البلد ورغم الحنين الذي سرعان ما تفاقم، فان طاقة ايجابية وحرة صارت تدفعني لقول ما أريد.

لو فكرنا بدلالات الاغتراب بعيداً عن المتداول!

أليس الحنين لمكان يجعلنا أقرب اليه بالروح مما لو كنا بداخله؟

حقا شعرت أن اغترابي عن البلد زال تماماً حين غادرتها.

قلت لصديقتي التي اشتقت اليها كثيراً، والتي أكثرت من هجومها علي حين صرت في الخارج: لا أحس بالاغتراب، بل بالاقتراب، أحس بالحنين والحب، وأشعر أني أقرب الى بلدي أكثر من أي وقت مضى. لم أسألها لمَ هي متوترة مني؟. ولم أسألها لمَ تحمّلني اليوم أسباب كل ما حدث ومَا يحدث؟. لأني أعرف الأجوبة الحقيقية. تذكرت احساس العداء والاغتراب الذي كان يعيقني كثيراً عن الكتابة وعن الحياة، ويملأ صباحي ومسائي وكلي.. عذرتها. وتفهمت رغبتها بالخلاص، وان صاغتها بطريقة مختلفة.

كان آخر ما كتبته في سورية هو احساسي اليومي بعدائي للحكومة، واحساسي اليومي بالاغتراب عن بقية تفاصيل يومنا، عن البيت والشارع، عن البائع والبضائع، عن الشجر القليل والنهر والجيران. كنت مشحونة برغبة دائمة وجامحة، للهرب، أصم آذاني بسماعات تبث موسيقى أو أغنية، تمنع صوت خطيب الجمعة يدعو لحماية أولياء الأمر، وأعالج الغبار الكثير، بأن أحدق بلوحة خضراء، وأنتظر الليل كي أحاول النوم وأشحذ حلماً أبيض ينسيني تناقضات النهار.

ولكن ما ان غادرت البلاد، ورأيت سماء البلاد الجديدة، والتي لا تخصني ولا تعنيني أيضاً، امتلأت بالحنين والشوق لسماء بلادي، وصار صياح بائع المازوت والغاز أنساً، ورائحة حاوية الزبالة عطراً معتقاً، وابتهالات خطيب الجمعة تعبيراً عن بؤس وخوف مشروعين، واستعراض الفنانات حرية علينا احترامها وقبولها.

أعرف أنه ليس برأس كل من يعيش في بلادنا، أكثر من حلم ببيت صغير، غرفة آمنة ودافئة ولقمة نظيفة، وأن تنساهم حكومتهم.

وينسوها أيضاً. فسحة الكاتب والفنان وكل الناس، حرية وأمان.

أتذكر كيف كنت كل حين، أوصي الأهل بابني وبأوراقي، من خوفي أن أغيب كما يغيب كثيرون. أضطر للسفر المفاجئ أو أعتقل. قال عبد الرزاق عيد عن البلاد: بلاد الخوف. نعم كنا مملوئين بالحذر والتوجس وكثير من الغضب. ترى هذا الغضب المتراكم ألا يولد أمراضاً؟. وان نجونا من أمراض جسدية ألا يولد أمراضاً نفسية؟. وان نجونا منها أيضاً، ألا يهيل سماكات على شعورنا فيتبلد من شدة الضغط؟. ومع ذلك كنا نبذل وقتنا وجهدنا ومقدراتنا الصغيرة والقليلة من أجل تجنب كل هذا كي نخلص الى لغة سلام واسعة تنجينا وتفيد، ونبقى بعداء أقل.

لكن للارادة حدود، وللتحمل حدود.

صارت همتنا في بلاد الغربة، من أجل تجميل ما نحب ونشتاق اليه، أصفى وأقوى. وصار الحنين أيضاً أشد وأشقى. داهمتني رائحة شواء باذنجان، فأحسست بالهلع: هذا باطرش أمي. وليست هي الآن من تعد الغداء، وليس أبي من أدار مفتاحه بالباب ودخل، وليس أخي هذا الذي يداري سيجارته. كان يفعل هذا وهو يقبل كتف أمه من خلف ظهرها، ولا يوجد غبار كاف حولي لأفترض أنها حارتي، والبائع هنا لا يغش ثم يبتسم مثلما يفعل أبو سعيد. وهذه الدراجة لا تشبه أبداً دراجة ابن جيراننا حين جرب أول مرة أن ينظر الي نظرة مختلفة، وهذه التي تتبختر ليست أختي التي تحب الثياب والعطور الأوروبية، وهذا التلميذ لا يشبه أبداً ضجر تلميذ حارتنا حين يمضي صباحاً الى مدرسته. لدي الكثير لأقوله عن الحنين، والكثير كي أقوله عن احساس الوحدة في بلد لا تعرف لغته ولا تفهم كيف أن عدد أعضاء النوادي يبلغ خمسة أضعاف عدد السكان، يعني كل مواطن عضو في خمسة نواد. هذا الفرق الحضاري يأخذني لأتذكر آخر جمعية نسوان حضرتها، والتي لا تعنى الا بأمور الثياب والطعام والقهقهات. حدث أن أحضرت احداهن زائرة جديدة، طبيبة تقرأ وتفكر، سألت على هامش الطعام والقهقهات، عن احساس كل منهن بعيد الجلاء!.

في اليوم الثاني وجدت كل امرأة كانت حاضرة، استدعاء من أمن الدولة. كانت دهشة الأزواج كبيرة، زوجاتهن اللواتي لا يتقن الا فن النق، يشتغلن بالسياسة من دون أن يعلموا!!

أتذكرك أيتها الكاتبة حين قلت: أكتب كي لا أموت. وأتذكر قول أحدهم كاذباً: أنا سعيد جداً. وهو لا يحظى بأي منبر لنشر ما يكتب. وأتذكر شكوى صاحب دار النشر من صراعه بين طلبات الكتاب وافلاس الدار. ولن أتحدث الآن عن أصدقائنا الذين يلتقطونهم من بيوتهم كل يوم وكل يومين ليوضعوا في السجون الى ما شاء الله.. وهل أنسى جواب بركات عرجة حين سئل عن مقتل أبيه بأحداث حماة: كيف يقتلونه وهو مسيحي؟. أجاب وهو يمسح لوحته: متلو متل غيرو. لهذا الحد تراكم الألم فألغى الحقد؟ أم أن اليأس من الوصول الى العدالة، صار بديهة وطريقة تفكير عامة؟.

لم أترك الشقا على من بقى. ربما هو ذنب العالم أجمع. لكني أفكر أن الوقت ليس وقت لوعة، بل وقت عمل.

---

* كاتبة سورية مقيمة في السويد.

النتشويّة الحلوة المدجَّجة بالجمر والرغبات

زياد خداش*

«نشيد الهاوية»

ليل أمس مشيتُ فيك إليك بخطوي الذي من غبار وقلبي الذي من مطَر، طريد المدن الغريبة أنا، شهيد الأرصفة والمؤسسات، كنت صامتةً وحيدة ، أأنهكَت عينيك الجنازَات؟ اتركهم دائماً وأجيء إليك يا عرسي ويا موتي، لو لم تكوني أنت لَما كانوا.. وأنا عائدٌ من الحرب إلى (أثيكا) حذّرتْني من (أثينا) طلبتُ منهم ان يلصقوا أُذنيَّ بالشمع، ويوثقوا قدميَّ ويديَّ بالسارية، حتى أتجنب صوتك المستحيل ونداءاتك الخرافية. لكني حطّمتُ رفاقي والسارية، وألقيتُ بي فيك، يا جزيرتي الملعونة أسلمتُك حواسي وَذاكرتي، أنا (عوليس) المجنَون، ألم تعُد (أثيكا) وطني؟ هل أنت وطني؟ أم أنت الطريق إلى وطني؟ والطَريق أجمل..ليَل أمس مشيتُ إليك فيك، مضاءً بجراحك، مطرَّزاً برُمانك، معمَّداً بَرذاذك.

كنت تَلتقطين أنفاسك تحت شجرة، فقد طاردتْك صواريخَ الفاشيين، تحسستُ بهَاءك الغريب، وداعبتُ يأسك، مرّغتُ جَراحي بشعرك المبلولَ..أحنيتُ عليه وجهي، ودفنتُ حنيني وتصدعاتي وأغنياتي، وغفوتُ..صحونا معاً ثلاثتنا: أنت والشمس وأنا..كنت تنزّينَ تمراً ووعوداً وشهداء، وأنزُّ أنا قرَى بعيدة وخوفاً، واندلق فجأةً من عينيكِ وهجٌ عجيب، قفز إصرار، انتفض حب، خفقتْ في القلوب نوارس، استيقظتْ بيارات، كنت يا رام الله أميرة المدن، سيدةً للموتَ الأنيق هأنذا أقف على حافتك، صهيلاً يبحث عن خيله الشريد، غيتاراً إسبانياً يبحث عن عازفه الضائع، مستعداً لسقوطي الجميل.. فانتظريني هناك يا رام الله! هناك بالضبط..فموتي عازفي وخيلي وابعثيني ـ إنْ شئت ـ من رمادي «جسراً وطيداً» أو «صقرَاً مديداً» يا أجمل الهاويات:

هل أنت موجودة؟!
هل أناَ موجود؟!

تستقيل المدن ولا تستقيلين، فمن أي برقٍ مصنوعةٌ أنتِ؟! من أي خمر؟! ومن أي صاعقة ترضعين؟! يُخيَّل لي أحياناً أنك غير مَوجودة إلا داخلي وان هذا الاتساع الصوفي الذي أعيشه فيك ومعك، هو اتساعي أنا.. اتساع روحي وذاكرَتي وامتلاؤهما بالطاقة الهائلة على اقتناص الإشراقات المكنونة، واكتشاف الحار والحقيقي من الأشياء، سرعان ما تدهمني رؤيا مخيفة: أنا كائنٌ غير موجود، أنا مجرد نثار ضائع من بقايا هبوبك الاخير العظيم.. حجرٌ في يد طفل..علمٌ يخفق..رصاصةٌ مسجونة، هتافٌ في حناجر متعبة، جرحٌ عميق في ساق امرأة مرّت صدفةً في الطريق، تنهدّاتُ أُم شَهيد رفضت أن تزغرد.. مَن أنت إذن إذا لم تكوني أنا؟ ومَن أكون أنا إذا لَم أكُن رغيفاً طرياً من بقايا وليمتك الأخيرة؟ يا لوليمتكِ الأخيرة!! يا لسخاءَ ضحكاتك ودمعاتك!! تعبَ الأصدقاء مني، وتعَبَتْ عينايَ، ومرضَت الكلمات، فاخرجي مني قليلاً يا صديقتي الغريبة: أريد أن أصحو، أريد أن استعيد عاديتي وأرضيتي..أُخرجي..أُخرجي!

«يا جسري نحوي»

فأيّ اشتعال مريب هذا الذي تتزنّرين به ليل نهار!! أيٌ جنون مواجهةٍ هذا الذي يتلبّسك حين تندفع تجاهك رصَاصات القتلة؟! ألا تشتاقين لليلة تريحين فيها ليلكِ من إرهاق السطوعً؟ ألا يتعب ضجيجَ شروقك السرمدي؟

ألا ينضب زيت قناديلك؟! يا امرأةً من بدايات توزعين النور الفائض على المدن المعتمة ولا تنتظرين امتناناً أو ذهولاً، تكتظ على بابك أسئلة الحيارى والوحيدين، تتركينهم هكذا شاحبين غريبين يعانون من ارتجاجٍ في الذهن، وتفكُّك في الذاكرة..ثم فجأةً تهبين عليهم بإيحاءٍ جميل: أُتركوني وشأني، لا تقربوا سرّي وكنهي! اكتفوا بالتجوال فيَّ، ألا يكفيكم هذا الترف؟! هذا التلذذ بغموضي وامتناعي عن التناول والوضوح ، توغلوا في اكتشافاتي وارتعاشاتي ومنحنياتي..ناموا على كتفي وفخذي، لكُم أن تختبئوا في قميص نومي، لكُم أن تتأرجحوا على رموش عينيّ، ولي فقط أن أعانقكم بضبابيِ وحوافي ونسوري، لي أن أظلَّ وحيدةً وصافيةً لا تُزعج أشجاري دهشات البشر الغبية، لا تحلم بامتلاكي شعوب ولا تتأجج على عتباتي أشواق الظمأى والمهووسين.

من أين لك هذه القدرة العجيبة على حب المصير والرقص الباذخ مع الألم؟! أجيبيني أيتها النتشوية الحلوة المدجَّجة بالجمر والرغبات..غداً سوف أرتكب حماقة التسلل إلى قصر أسرارك، ذلك الأزرق المتعدد البعيد الذي يزوره بانتظامِ سُوّاح المدن الغامضة، غداً سوف أمارس مع درجاتك العتيقة لعبة العاشق المدلل الذي يرغب َفي أن يصير ضحية، سوف اقترف اللهاث الفضي على الدرجة السابعة الأخيرة، تلك المبللة بالخبز والمُضرجة بالضجر والضحكات، سوف أدّعي الرغبة في الانتحار، أعرف أنك هناك ترقبينني وتعرفين ما يدور في رأَسي، تبتسمين ، أرى سخطاً ضحوكاً يبزغ من عينيك القرمزيتين ـ وأسمع صوت ارتطامٍ غريب، أهو حنين أصابعي أم سأم ظلك أم هو هشيم قمحي مع زرقة لوزك أم انحدار موجي مع صعود صخرتك؟! يا صنوبرة جراحي يا جسري نحوي...؟؟

هدئي قليلاً من إيقاعك العنيف قليلاً جداً جداً، أريد أن أتفرغ لطفلتي وتلاميذي وحديقتي، فاندمي واعتذري لضحاياك، ومارسي الأنين، صيري عادية..يزحَف فوقك الغزاة والحديد والحجارة، وتذمري من غياب الخُضرة والموسيقى، صيري عاديةً لأصير عادياً يا امرأةً من قمم..يا أنا قبل عقاب الآلهة.

---

* كاتب من فلسطين